

فرنسا ومستعمراتها

للأستاذ أحمد رمزي بك



• فكرة الاتحاد الفرنسي قديمة : عبر عنها جيريل هانوتو بقوله : وحدة الامبراطورية ووحدة الارادة والتشريع والعمل ، ووحدة الشعور والارادة المرة . ليت بالصف والقوة والفتح ولكن باللين والترغيب تم الوحدة الفرنسية . •
وتتميز آراؤه بخطورتها على الأمم المنلوبة وأثرها في نفوس الفرنسيين وسرعة تطلعاها في أوساطهم

جيريل هانوتو من كبار رجال فرنسا ، ظهرت مزاياه وشخصيته في أعماله وكتابته وأقواله ، فإذا هو يؤثر في جيل بأكله من الناس ، كتب كثيراً عن تاريخ فرنسا وأمجادها ، وعرف الناس ما لم يعرفوا عنها ، وكتب عن تاريخ الأمة المصرية ، وأشرف على إخراج كتاب على الأسلوب الذي بروق له وللمستشرقين ، وهو رجل دائم الإنتاج ، لم يترك عملاً من أعمال الخلق إلا كتب فيه ، ولا نشاطاً إلا جال فيه وسال . كان من أولئك الذين يعملون بالمثل اللاتيني القائل :

وقلما تتواني الحوادث والناسبات عن الإسفاف بمثل هذه الثوبات في وقت من الأوقات .



هذه جملة صالحة من أسباب « النك » عند جميع النساء في جميع البلدان ، وبين جميع الأجناس .
ومن نرفها فنستفيد ولا شك من هذه المعرفة كما نمتفيد من كل معرفة .

ولكن هل معنى ذلك أننا نقضى على الداء إذا عرفنا حقيقة الداء ؟

كلا . فهما يطل الكاتبون والقائلون من « النك » في هذا الموضوع فالتك نفسه باق إلى آخر الزمان ، ما بقي للمرأة لسان ولا رجل أذنان تسمعان أو لا تسمعان .

عباسي محمود المقار

« إلى بشر مثلهم ، ولن أترك (ليكون غريباً) عنى عملاً من أعمال البشر » ا

فكان من الطبيعي والضروري أن يلفت الاستعمار الفرنسي أنظار الشيخ ، ولذلك كتب فيه وأطال ، وهو القائل في كتاب له عنوانه « من أجل الامبراطورية الفرنسية » :

هل ترغب فرنسا أن تحيا حياة الأمم الفتية الناهضة ؟ أم ستلحق بغيرها من الأمم الغافية التي ذهبت ربحها ؟
هل ستفنى كما فنىت بيزنطة ؟ وهل تتبع قرطاجنة وتلقى مصيرها ؟

إذا عاشت فرنسا بمعظمتها وقوتها وأمجادها ، وهذا ما لا أشك فيه (هذا قوله هو) فلتكن متجهة بنشاطها وفكرها وعبقريتها إلى مستعمراتها

هناك تبرز شخصيتها الخالقة وتنمو علائقها مع تلك العائلة التي جمعها حولها : عائلة المستعمرات الفرنسية

كانت سيحة وبرناجياً قذف بهما هذا الشيخ القاني فلتقفهما رجال الاستعمار ، قال هذه الكلمة بمد أن أمضى السنين يدرس ويبحث ويقيد ويسجل

وخطر هانوتو أنه رجل من رجال الفكر والدهاء ، يجمع بين البحث والملم والفلسفة ، ينظر للاستعمار نظرة المحلل الطاغية الذي لا تنطرق الرحمة إلى قلبه

أندرى بمن أشبهه ؟ بهذا الفريق أو الرعيل من دهاة العرب الذين نبذوا في المصرا الأول من الهجرة ، فقادوا الحركات الكبرى أو مهدوا لها بفكرهم وعقلهم : هذا الفريق الذي فيه معاوية وعمرو بن العاص ، إننا لن نجد اليوم بين مجموعة الدول العربية من تسمو به كفايته إلى هذا الفريق من السلف الخالد .

أما هانوتو فكان داهية من دهاة الفرنسيين ، تلمس روحه وأناقسه في كل جهة بدون أن تظهر شخصيته ، فهو من أولئك الذين يضمون الخلط لبلادهم لسنوات بعيدة ، ويرسمون لحكوماتهم برامج السير مع الأمم التي نكبت بالاستعمار ، وهو مثل من كثير غيره ، ولكن لكثرة ما قرأت عنه أراني في حل إذا وضعته في صف دو فرين السفير البريطاني في اسطنبول وملمر صاحب المشروع المشهور ، وكلاهما من دهاة الاستعمار

الأنظمة هي روح الجماعات ، بقدر صلاحها تصلح الجماعة ، وإذا فسدت أنهار كيان الجماعة .

ولهذا فالإمبراطورية في نظر هؤلاء كائن حي يجب أن يعيش وينمو ، وإن قوته مستمدة من الأنظمة التي تربط المستعمرات بالوطن الأم ، وإن أنظمة الحكم يجب أن تطرد مع الزمن حتى لا يتورها ويمسها الجلود ، وهو آلة المجتمعات والداء المضال الذي يصيب الإمبراطوريات ويقضى عليها كما قضى على ملك روما وبيزانطة وغيرها .

فهذه الفلسفة الاستعمارية لم تقف عند حد النظريات ، بل أخذت تخلق في العلاقات بين الدولة الحاكمة والأمم المغلوبة ، وتتخذ طريق التجربة والاستقراء في مختلف النواحي

وحقيقة للعالم هي : أن السيطرة الأوروبية سواء كانت فرنسية أو غيرها سادت العالم وشموبه واحتلت المكان الأول وفرضت إرادتها أينما حلت ، إلا في الجهات التي ساد فيها الإسلام فهناك واجهت المصاعب واضطرت أن تسيّر على حذر وعلى قدر ، ولذلك تاقى الإسلام والمغرب أكبر الطغمتان في التاريخ ، وفي سبيل هدمه أعطى ذلك اللون البراق للمدنيات القديمة التي انقرضت في مصر وبابل وأشور وفارس ، وهذا يفسر لنا تهجم هانوتو وغيره على العرب وطمعته على تاريخهم ووصفه للإسلام بأنه عدو للعالم والمدنية .

لأن الضعف يوجد تسليماً وخضوعاً ، وهذا ما تم في ربوع أفريقية السوداء ، أما حيث ساد الإسلام فقد وقف المسلمون يقارعون الاستعمار وجهاً لوجه ، وبقى خطر الدعوة المحمدية ماثلاً أمام المستعمرين ، ولذلك كثر أعداؤنا لأننا أقوياء : والقوى يخلق أعداء لنفسه ، ومن هؤلاء جبريل هانوتو الذي تولى يوماً الإمام محمد عبده دونه عن الإسلام في كتاب له مشهور ومواقف مشهودة أمامه .

ويذكرني هذا بما قرأته في مقدمة كتاب الإسلام وسياسة الخلفاء الذي كتبه أريكو انساباتو « يقف العالم الإسلامي في مواجهة أوروبا موزعاً بين أملاك الدول المختلفة والقوميات الحديثة يقاوم بشدة وعنف وعناد ممتداً على وحدته الدينية وصيغته المادية التي تعطي لحركته مظهراً ينفرد به عن غيره »

البريطاني الذين وضوا الخطط الطويلة المدى لبلادهم ، ولا يزال نحن بمصر نجاهد للخروج من نطاق تقرير دوفرين عن الشؤون الدستورية ، ونكافح للخروج من دائرة ملغز في الناحية السياسية . ولا تعجب من تقرير ذلك ، فإن الاستثمار الأوربي في نكباته ومصائبه لا يمد شيئاً بجانب مقدرته على التطور والظهور بألوان مختلفة ، وهو أكبر نشاط إنساني قام به البشر منذ الخليقة إلى اليوم ، بل هو دعامة المدنية الحالية ومظهر قدرتها وتفوقها ، بل لا نبالتم إذا قلنا إن مظاهر الترف ومستوى الحياة لدى جماعات من الأوربيين سوف تنهار أو تهبط بتفكك الروابط مع المستعمرات ، ولذلك نجد الدول الأوربية أشد تمسكاً بهذه الروابط من أي عهد مضى . وزرى أنها تجتهد أن تسالم الحركات القائمة وتسايسها وتخضع لبعض مطالبها ، حتى تحتفظ بما لها من سيطرة على هذه الشعوب . وهذا الاتجاه هو أخطر ما يواجه الأمم الإسلامية الناشئة ، لأننا لن نتغلب على الاستثمار إلا إذا فهمنا هذا النوع من العمل الإنساني ، ولن نصل إلى الخروج عن نطاقه إلا إذا بعث الله لنا من أنفسنا رجالاً أقوياء أشداء يذمقون عنا ويلانه بزعيمتهم وقوتهم ولهم من الفكر والمضاء في الحق ما يمكنهم من نقلنا من حالتنا التي نحن فيها إلى حالة تقرب من المنطق والمعقول ، أو تكون أقرب إليهما من الحالة التي نعيش فيها اليوم .

رأعود إلى هانوتو فأقول إنه قد لا يكون أول من نادى بفكرة الاتحاد الفرنسي ، فقد يكون هناك غيره ممن تقدمه ، ولكنني أعجب به من ناحية أنه من فلاسفة ومفكرى الاستثمار ، الذي لمسوا تقدم الدنيا وتنبهوا لما قد تأتى به الأيام ، فتقدموا بأراء ومشاريع وأفكار لم تكن بعيدة عن الحقيقة .

ثم هو مع دهائه وفكره وبصيرته لم تشغله مظاهر الدنيا والثراء وحب النفوذ ، كما شغله حب بلاده ورغبته في بقائها ، فتحكم على ربوع المستعمرات وفي رقاب أهلها ، وهو حينها يكتب وينشر آراءه وشمومه لايهمه شخصه ؛ وإنما يؤمن بشيء واحد هو بقاء سيطرة فرنسا على مستعمراتها .

فهو يؤمن بأن بقاء الجماعات متوقف على الأنظمة^(١) التي تربطها ، وهذه يجب أن توضع على أسس صالحة قوية ، بل إن

السوفييتي الروسي بلون خلاب ، وخيل إليها أنه قد قضى نهائياً على نفوذ الإسلام من ربوع آسيا الوسطى ، وفي هذا خطأ كبير فإرادت أن تستعين بأساليبه في هذه الناحية وفي بعض النواحي الأخرى ، ولذلك ترغب أن تؤسس اتحادها على شكل يشبه اتحاد روسيا وسنمعرض بمد قليل الاتحادين في مقال لاحق بإذن الله .

أحمد رمزي

طَبْعَةُ الرِّسَالَةِ

تقدم اليوم

الطبعة الجديدة العاشرة من كتاب

فَيْحُ الأَرَبِ العَرَبِيِّ

للأستاذ

أحمد رمزي

وهي مزودة منقحة

في ٥٤٤ صفحة من القطع الكبير

وبأمرها ذيل لغوي يقسم ما غمض من الألفاظ والتراكيب

يطلب من « دار الرسالة » بما يدين

ومن سائر المكتبات الشهيرة

ومنه ٤٠ قرشاً عدا أجرة البريد

فالساسة الاستعمارية وقتت إزاء المسلمين حائرة ، وهي التي انتهت إلى اعتبار الإسلام عدواً لدوداً للاستعمار الأوروبي وورسفته بالرجمية والتأخر لأن قنانه لم تلن لجيروت الدول الاستعمارية .

وعلى هذا رسمت الخطا لاستبعاد الإسلام ما أمكن من المناطق التي قد يسود فيها : وفي هذه الناحية بالذات ظهرت قرارات مؤتمر برازافيل تتفق مع قرارات حكومة السودان بشأن التصديق على حرية العبادة ومنع تغفلل الإسلام في إفريقيا الوسطى وهذا مما جعل للإسلام قضية سوف نمرض لها يوماً لمرضها على الضمير العالمي .

ولم تكن فرنسا بحاجة إلى إعلان الاتحاد الفرنسي والدعوة إليه لو كان الأمر متعلقاً بالمستمرات الإفريقية وحدها ، أما الأمر متعلق بشمال إفريقيا حيث يسود الإسلام ، ولذلك قامت أمامها العقبات وحشدت القوات .

وقد كان من أيسر الأمور عليها فرض الثقافة واللغة والدين والأسماء الفرنسية وإيهام الجنود السود أن آباءهم من بلاد الغال وأنهم فرنسيون دماً وروحاً وفيهم من يصدق ويتحمس لذلك .

أما والإسلام والمروية بالرصاد ، هنا يبدو الاتحاد متردداً يسير بخطوات وثيدة ، ويستتير بأراء هانوتو وغيره ، وفي ذلك يقول صاحب كتاب الإسلام وسياسة الخلفاء : « إن للإسلام سياستين : واحدة استعمارية تتعلق بالاستعمرة ، وأخرى عالمية تتبعه وتلاحقه في مشارق الأرض ومغاربها » . وهما يلتقيان في ناحية واحدة وهي إبعاد الأخطار ما أمكن ؛ تلك الأخطار التي يسببها للدول الأوروبية وجود ملايين من المسلمين على الأرض ، يمثلون في إفريقيا خطراً لا يستهان به نظراً لازديادهم عاماً بمد عام .

في القرون الماضية فقدت فرنسا مستمراتها لأن البحر كان فاصلاً والمسافات بعيدة ، واليوم تحارل فرنسا فرض إرادتها على أقطار شاسعة ، فإذا بالإسلام أبعد غوراً من البحار والمحيطات : وهي لن تقدر عليه لأنه من نور الله .

ولذلك ستسير شعوب الجزائر وتونس ومراكش نحو التحرر والخلاص برغم المصاعب التي تقيمها فرنسا وحكوماتها المختلفة واتحادها ووحدها : لأنها شعوب عمرية إسلامية قوية لا تلين . لقد استعرضت فرنسا أنواع الاستثمار المختلفة فبدا لها الاستثمار